الأندلس

تاريخ اسم وتطوره

مع أول جماعة من المسلمين وطئت أرض إسبانيا تهيأ التاريخ لمرحلة جديدة فى سيره : العرب يفتحون أوربا ، وفى جانب منها ، لاتينى وكاثوليكى ، يستقر الإسلام ، وتعلو كلمة الله ، وتصبح العربية لساناً ، وعلى بطحاء شبه الجزيرة تتعايش أجناس من البشر واللغات والعقائد ، وفى ظل الإسلام يتنفس الناس جميعاً جواً سمحاً جميلا ، من اليسر والإخاء والمساواة . لم يعد الملوك مردة جبارين ، متعتهم القهر ، ولعبتهم الإذلال ، ولم يعد المستضعفون فى الأرض رقيقاً يصنع الرفاهية دون أن يشارك فيها ، ويذلل صعاب الحياة دون أن يأخذ بحظ منها ، لقد أدار المجتمع مع الإسلام وبعون منه ظهره للأمس ، وما هو غير صالح من عاداته وتقاليده ونظمه ، ليواجه غداً متفائلا ، أخف أثقالا ، وأطيب عيشا . وكان من بين الجديد الذى جاء به الإسلام اسم لشبه الجزيرة لم تعرفه من قبل : الأندلس .

كان الفاتحون المسلمون أول من أطلق اسم الأندلس على هذا الجانب من الأرض ، أما قبلهم فعرف اسمين مختلفين . أطلق عليه الإغريق لفظ إيبريا Iberia ، وكان يقصد به فى البدء منطقة ولبة Huelva (١) ، ثم أصبح يطلق على كل المنطقة الممتدة شرقاً على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، واتسع مدلولها حتى أصبحت تطلق على كل شبه الجزيرة (٢) . ونجد اللفظ مستخدماً لأول مرة فى مؤلفات Hecartee de Milet وهو مؤرخ وجغرافى إغريقى عاش فى القرن السادس قبل الميلاد (٣) . ونلتقى باللفظ أيضاً عند المؤرخ اليونانى هيرودوت ، وعاش فى القرن الخامس قبل الميلاد . ويأتى المؤرخ الإغريقى بوليبيوس ، وكان فى شبه الجزيرة نفسها خلال الثلث الأخير من القرن

الثانى قبل الميلاد ، فيلقى على مفهوم اللفظ مزيداً من الوضوح « يطلق اسم إيبريا Iberia على الجزء الواقع على البحر الأبيض ، ابتداء من أعمدة هرقلوس (مضيق جبل طارق الآن) ، أما الجزء الواقع على الأطلنطى فليس له اسم يعرف به ، لأنه اكتشف منذ قريب » . وجاء بعده المؤرخ استرابون ، وعاش فى نهاية القرن الأول الميلادى ، فاستخدم اللفظ يريد به كل شبه الجزيرة . وقد ظل الكتاب الإغريق يستخدمون هذا اللفظ ومشتقاته ، حتى أولئكم الذين كانوا يعيشون فى بيئات لاتينية خالصة (٤) .

وهى حقيقة لم يغفل عنها الجغرافيون العرب القدامى ، يقول أبو عبيدة البكرى ، المتوفى عام ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م ، وهو أعظم جغرافى عرفه الأندلس ، فى كتابه : « المسالك والممالك » ، ويتميز بالدقة والوضوح والبعد عن الأساطير ووصلنا فى جانب منه وضاع الباقى (٥) : « يذكر أن اسمها فى القديم إبارية Iberia ، من وادى إبره » (٦) . وجاء من بعده مواطنه الحميرى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ، المتوفى عام ٨٦٦ هـ — ١٤٦١ م ، فنقل عنه هذا النص دون زيادة ، فى كتابه : « الروض المعطار فى خبر الأقطار » (٧) .

والاسم الثانى إسبانيا Ispania ، وأطلقه عليها الإغريق أيضاً ، أو على الأقل أول ما نلتقى به فى كتاباتهم ، ولو أن أصل الكلمة يجب أن نبحث عنه فى لغة قوم أقدم من اليونان . ويرى الكاتب بوتشارت Bochart فى كتابه « الجغرافية المقدسة » ، وصدر فى مدريد عام ١٧١٢ م ، أن الاسم مشتق من الكلمة الفينيقية سبان Span بمعنى بلاد الأرانب ، لأن شبه الجزيرة كان غنياً بهذا النوع من الحيوان . ولإحدى العملات القديمة التى وصلتنا من عصر الإمبراطور أدريانو Adriano (٧٦—١٣٨ م) تمثل إسبانيا فى شكل أم جالسة بين قدميها أرنب (٨) ، وهو تفسير يرفضه الباحثون المعاصرون دون

أن يقدموا له بديلا . نعم ، هناك من يرى أن الكلمة ربما كانت من أصل سلتى ، وأن أصلها فى هذه اللغة هو نفس أصل الكلمة الألمانية Spann ، ومعناها الوادى أو المدخل أو المفتاح ، ولكنه افتراض أبعد عن التصور من افتراض الأصل الفينيقى . وقد استخدم الإغريق شكلا ثانياً للكلمة هو Spania (٩) ، وكان الكاتب اليونانى Artemadoro أول من استخدمها(١٠) . ويشير الحميرى أيضاً إلى هذه الحقيقة فيقول : «اسم الأندلس فى اللغة اليونانية إشبانيا (١١) .

وقد استخدم الرومان الكلمة اليونانية Ispania بعد أن زادوا عليها حرف H فى البدء فأصبحت Hispania وفى واحد من ثلاثة كتب افتتح بها تاريخ الأدب اللاتينى ، أى فى اللحظة التى بدأت فيها اللاتينية تصبح لغة أدبية ومكتوبة ، نلتقى بهذا الاسم الذى سوف يحمله شبه الجزيرة بين العالم الغربى ، إلى أن يهبطها طارق بن زياد وجنده الفاتحون ، فى قصائد الشاعر اللاتينى أنيوس Enniu (٢٣٩—١٦٩ ق . م) ، ولا تمضى غير قليل حتى نلتقى باللفظ شائعاً فى كتابات كل المؤرخين والشعراء الرومانيين ، وترد كثيراً فى قصائد الشاعر الرومانى تيتو ليفيو ، وعاش من عام ٥٩ قبل الميلاد إلى عام ١٧ الميلادى . وإلى جانب هذا اللفظ استخدم الرومان شكلا آخر له على نحو قليل وهو Spania ، ومنه اشتقت كلمة إسبانيا Espana الحديثة .

أما كلمة هيسبيريا Hesperia وترد أحياناً فى بعض المصادر الإغريقية مراداً بها شبه الجزيرة نفسها ، فلا يقف مفهومها عند شبه جزيرة إيبيريا فحسب ، وإنما تعنى فى اللغة الشاعرية كل الأراضى التى تقع غرباً على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

تلك هى أسماء شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامى ، وتبقى معنا كلمة الأندلس ومعها سوف تدخل التاريخ بعده .

* * *

لم يعرف العرب قبل الفتح كلمة الأندلس ، وبتعبير ياقوت فى معجم البلدان : « هى كلمة أعجمية لم تستعملها العرب فى القديم ، وإنما عرفتها العرب فى الإسلام » . وباستثناء الإشارات العارضة والنادرة الواردة فى كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لا تعرف أيضاً كلمة « إسبانيا » ولا تتحدث عنها ، والمؤلفون العرب عدا قله يقولون بلاد الأندلس . فمن أين أخذ العرب هذا الاسم ؟ .

كان المستشرق الهولندى رينهارت دوزى ، المتوفى عام ١٨٨٣ ، أول من طرح المشكلة ، وحاول أن يجد لها تفسيراً علمياً ، وهو التفسير نفسه الذى قبله سيهولد محرر مادة أندلس فى دائرة المعارف الإسلامية ، وتوسع فيه شيئاً . كلاهما يرى أن « أندلس » أخذت من لفظ Wandalucia ، وهى صيغة ربما أطلقت على إقليم باطقة Bética الذى احتله الوندال على امتداد عشرين عاماً تقريباً ، من ٤٠٩ م إلى ٤٢٩ م . ويشمل منطقة واسعة فى الجنوب الشرق لشبه الجزيرة يخترقها نهر الوادى الكبير ، وربما أطلق أيضاً على ثغر Traducta الذى عبر منه الوندال فى طريقهم إلى أفريقيا ، ويظن أن موقعه حالياً مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras ، ويفهم من الروايات العربية أن موقعه نفس المكان الذى حط فيه أبو زرعة طريف رحاله مستطلعاً ، وهو المكان الذى حمل اسمه إلى الأبد ، فعرف باسم جزيرة طريف Tarifa (١٢) ، غير أن تحديد المكان بالدقة : هل هو مدينة الجزيرة الخضراء ، أو جزيرة طريف ، أو الصخرة التى حملت اسم طارق ، ما زال موضع خلاف شديد ، ولكنه خلاف لا تترتب عليه أية نتائج عملية ، لأن المواضع الثلاثة تكاد تكون متصلة .

ووفقاً لهذه النظرية فإن الفاتحين المسلمين من العرب والبربر أطلقوا اسم الإقليم أو المدينة التي هبطوا فيها لأول مرة على شبه الجزيرة كلها ، بل وعلى مادان لهم من ولايات فى جنوب فرنسا ، مثل سبتمانية ونربون ، وهذا التدرج فى التسمية تدعمه رواية للحميرى يقول فيها : « إن شبه الجزيرة فى القديم كان يسمى إيبريا ، ثم سميت بعد ذلك باطقة ، ثم سميت إشبانيا ، اسم رجل ملكها فى القديم ، أو الإشبان الذين ملكوها فى الأول من الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس ، أخذاً من إسم الأنديش الذين سكنوها » (٣٠) . لكن الرواية العربية ، وهى متأخرة بالنسبة إلى الفتح ، وبإزاء تسمية غامضة تحاول أن تجد لها تفسيراً ، لا تقف عند التاريخ الخالص وحده ، وإنما تضرب فى بيداء الأسطورة على غير هدى ، والحق أن أكثر ما نجد ذلك فى كتب التاريخ ، وأقل ما نجده عند الجغرافيين .

فهى سميت بالأندلس لأن الأندلس بن طوبال بن يافث ابن نوح أول من سكنها ، أو أنه الأندلس بن يافث مباشرة دون عبور بطوبال . ولتصبح القصة أكثر ثقلا ، وتجد لها من قلوب الناس مكاناً ، وإن لم يكن من فكر العقلاء نصيب ، فإن سبت بن يافث ، أخو الأندلس بن يافث ، عبر المضيق إلى أفريقيا ، ونزل بالعدوة المقابلة للأندلس ، وحط رحاله فى مكان نُسب إليه ، وحملت المدينة التي نزلها اسمه ، فكانت مدينة سبتة Ceuta ، ولا تزال قائمة عامرة حتى يومنا هذا .

وتضطرب الأسطورة فتجعل من الأندلس اسماً سابقاً لاسم إسبانيا ، وتجعل من هذا اسم ملك اجتاح شبه الجزيرة وملكها وعمرها ، هو : إشبان بن طيطش ، ولا يجد القاص معنى يفهمه لكلمة إشبانيا ، فيوشيها بشيء من التوابل تجعل من القصة شيئاً ذا نكهة ومذاق : « وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان ، لأن مولده

كان بها ، وأنه استحال فى لسان العجم فأصبح إشبان (١٤) . وهو استنتاج ذكى تدعمه قوانين اللغات ، فالهاء حرف غير منطوق فى اللاتينية ، والسين والشين والصاد متقاربة المخارج ، ويحل أحدهما مكان الآخر . ولما كانت اللاتينية ، والإسبانية تبعاً ، لا تعرف صوت الصاد ، فإنها تستعيض عنه عند نقل كلمة أجنبية إليها بأقرب الأصوات إليه مخرجا ، وهو الشين أو السين ، غير أن هذه الإشارة وان اتسمت بالذكاء ، يقف التاريخ منها فى الجانب المقابل . ذلك أن ارخين العرب اعتمدوا فى هذه القضية ، وتطورها قديم موغل فى القدم ، على الرواية الشفهية وحدها ، يلتقطونها قصصاً من أفواه خيرة العامة ، أو حكايات من رجال الدين ، فى بلد كان غداة الفتح متواضع الثقافة ، لا يعرف التدوين كتابة فى الورق ، أو حفراً على الصخر ، إلا نادراً ، فاختلطت عليهم الأمور ، ووقعوا فى الخطأ حين أسرفوا على أنفسهم فى الاستنتاج . لأن كلمة أصبهان Saphan ، التى يشيرون إليها ، فينيقية الأصل ، ويظن فعلا أن كلمة إسبانيا مشتقة منها (١٥) ولكن لا صلة لها بكلمة « أصبهان » اسم المدينة الفارسية ، لقد اختلط عليهم الأمر ، فمضوا مع القصة إلى نهايتها : الملك اسمه أصبهان ، لأنه ولد فى هذه المدينة ، وباسمه سمى شبه الجزيرة لأنه ملكها ، واستحال فى لغة العجم إلى إشبان . إن اسم إسبانيا أقدم بكثير من مجيء أصبهان إلى الحياة .

و يمضى المقرى « نفح الطيب » ، نقلا عن ابن حيان فى « المقتبس » : « ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف على إشبان المذكور ، وهو يحرث الأرض بفدن له أيام حراثته ، فقال له : يا إشبان ، إنك لذو شان ، وسوف يخطيك زمان ، ويعليك سلطان . . » (١٦) ، ويمضى الحوار بينهما فى حديث مسجوع مصنوع أشبه بسجع الكهان . ثم دعا له الخضر بالخير ، وبشره بالملك : ولئن كان الخضر فى عالم الأساطير يتحدث بكل اللغات ،

إلا أن الراوى لم يقل لنا هنا بأيها تحدث إلى هذا الشيخ إشبان .

ومع إشبان هذا تستطيع أن تمضى لحظات ممتعة ، رفقة خيال خصيب ، فهو أحد الذين ملكوا الدنيا — فيما زعموا — (والاحتراز من المقرى !) ، استوت له الأندلس بأسرها ، ودانت له بكاملها ، واتخذ إشبيلية دار ملكه ، واستغلظ سلطانه فى الأرض ، وكثرت جموعه فعظم عتوه ، وغزا إيليا ، وهى بيت المقدس الشريف ، بعد سنتين من ملكه ، خرج إليها من إشبيلية فى السفن فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة ألف ، واسترق مائة ألف ، ونقل رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس .

لقد أورد المقرى فى الجزء الأول من تاريخه فيضاً من هذه الروايات ، وليست كلها صنعة قاص ، وإنما فيها تاريخ حقيقى كثير ، مضطرب نعم ، ومتداخل دون شك ، ولكنه مادة خصبة وأساسية لفترة تفتقد المؤرخ والتاريخ .

ويحتاط ابن حيان المؤرخ الأندلسى الجليل لنفسه ، فذكر أنه ينقلها عن رواة العجم ، وكانوا يتداولونها شفاها ، وهذا التداول الشفوى هو مصدر الخلط والاضطراب ، وحين كانت تصطدم مع موازينه فى الرواية ، ومنهجه فى التمحيص ، ويراها سبيله الوحيد لمعرفه شىء عن تاريخ الأندلس القديم ، يوردها ويعتذر لنفسه . والحق أن هذه الأساطير لاتختص بها المؤلفات العربية وحدها ، وإن أوهم بعض المستشرقين بذلك ، إذ نلتقى بها ، كثيرة وتثير الضحك ، فى المؤلفات الإسبانية المسيحية التى كتبت فى اللغة اللاتينية ، أو فى اللغة القشتالية القديمة ، فنجدها فى : « مدونة تاريخ إسبانيا العام » ، والتى أمر الفونسو العاشر ، الملقب بالحكيم ، بكتابتها ، تأليفاً فى جانب منها ، ونقلا عن العربية فى جوانب أخرى ، فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، ونجدها فى مؤلفات رودريجو خمينث مطران

طليطلة ، وعاش فى النصف الأول من القرن الثالث عشر أيضاً . وفى مؤلفات أخرى كتبت فى هذا القرن أو بعده . وتعكس قصة غزو بيت المقدس وقتل اليهود وأسرهم طابع الصراع العنيف الذى كان قائماً بين اليهود والكاثوليك فى الأندلس ، قبل مجىء المسلمين ، وخلال حكمهم ، وبعد دولة المسلمين هناك .

* * *

ومهما يكن من أمر فقد انتشر اسم الأندلس سريعاً بعد الفتح الإسلامى ، وشاع استخدامه فى كتب التاريخ والجغرافية والرحلات والوثائق ، ومحا من المدونات وذواكر الناس كلمة إسبانيا تماماً . وحين كانت دولة الإسلام تشمل كل شبه جزيرة إيبريا تقريبا ، وقسما من جنوب فرنسا ، كان لفظ الأندلس يطلق عليها جميعاً . غير أن الأمر لم يستمر على هذا النحو وبدأت حركة المقاومة الكاثوليكية تشتد فى الشمال من الأندلس ، منذ القرن العاشر الميلادى ، وتجد من البابا فى روما ، ومن بقية الكاثوليك فى العالم ، عوناً وتشجيعاً ، وأخذت الدولة الإسلامية تتآكل شيئاً فشيئاً ، حتى انحسرت فى القرن الثالث عشر الميلادى داخل إقليم ضيق ممتد على الساحل ، من جبل طارق حتى مدينة ألمرية ، ويمتد داخلا فى العمق حتى سلسلة جبال رندة وجبال إلبيرة . ويرى معظم الباحثين من المحدثين ، وجلهم من المستشرقين والإسبان ، أن اسم الأندلس كان مرتبطاً بالدولة الإسلامية وحدها ، مهما كان امتدادها ، يتسع معها ويضيق ، ويجد هذا الرأى سنده فى أن المدونات الإسلامية درجت على أن تطلق على الدويلات الكاثوليكية المختلفة التى قامت فى الشمال من شبه الجزيرة أسماء مختلفة ، غالباً ما تكون المقاطعة التى يملكها الحاكم مثل : نبرة وأرجون وقشتالة وأشتورياش والبرتقال ، وتسميهم النصارى أحياناً والروم أحياناً أخرى .

ولكنى لا أقبل هذا الرأى على إطلاقه ، ذلك أننا نجد على بن موسى

من بنى سعيد ، المتوفى عام ٦٧٣ هـ = ١٢٧٤ م ، ومكمل تصنيف كتاب : « المغرب فى حلى المغرب » يضمن كتابه جزءا خص به الأندلس المسيحى ، سماه : « كتاب لحظة المريب فيما بقى من جزيرة الأندلس لعباد الصليب » ، أى أنه يمتد بالتسمية فيجعلها تشمل تلك الدويلات المسيحية التى تكونت على حساب الدولة الإسلامية ، وانتزعت منها عددا من المدن الكبرى والهامة .

وفيما أرى ، يجب التفرقة بين المصادر العربية الأولى حين تشير إلى هذه الدويلات ، أو الشبيهة بها ، التى قامت فى الشمال ، وتكونت فى وقت مبكر على الطرف الثانى من شبه الجزيرة ، على أرض لم تتأصل فيها الحضارة الإسلامية يوماً ، وإن مر بها المسلمون من حين لآخر غازين أو عابرين أو ملاحقين لجيوش المسيحيين ، ومن ثم لم يرها المؤرخون الأول جزءا من الأندلس الإسلامى ، وبين المصادر المتأخرة حين اتسعت هذه الدول ، وقوى شأنها ، على حساب الأندلس الإسلامى ، فضمت إليها مدناً ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، ونفقت سوق الأدب ، وعمرت بالمعاهد والمساجد وشغلت عقول الناس واحتلت من قلوبهم مكاناً غالياً مثل طليطلة وشنترين وبلنسية وسرقسطة ، ثم إشبيلية وقرطبة ومرسية أخيراً ، فاعتبروها أندلساً وإن كانت فى قبضة الكاثوليك .

يقول ابن سعيد : « وأعظم الملوك الذين توارثوا المملكة عند النصارى بالأندلس وقسموا بلادها أربعة : أذفونش ، وهو مالك قشتالة ، وهى أعمال فى جهة طليطلة إلى البحر المحيط ، كانت قاعدتها قبل أن تصير لهم طليطلة مدينة غليسية ، وهى على البحر المحيط . ثم البرجلونى (نسبة إلى برشلونة) وهو ملك شرق الأندلس ، ويقال لمملكته أرغون ، لأنه كان فى مدينة أرغون

حتى ملك طرطوشة وبرجلونة (= برشلونة) وغيرها . ثم البيوج وهو فى بلاد الشمال مجاور لبطليوس ، وقاعدته ليون . ثم ابن الريق ، وهو ملك جليقية ، وهى فى الشمال والغرب من الأندلس ، كانت قاعدته مدينة شانت ياقوه ، وهى عظيمة إلى نهاية ، فيها معدن الذهب ، وقد صارت له أشبونة وغيرها من بلاد الإسلام (١٧)» .

وتقسيمات ابن سعيد دقيقة وصحيحة فى مجملها ، ولكنها تحتاج إلى فضل بيان فى بعض الألفاظ . فعاصمة قشتالة قبل أن يستولى أذفونش Alfonso على طليطلة كانت مدينة برغش Burgos ولم تكن غاليسية Galicia وفى وسط المملكة وليست على البحر المحيط ، وغاليسية وتكتب فى المصادر العربية الأولى جليقية اسم مقاطعة فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة وليست اسم مدينة(١٨) . وأرغون ليست مدينة ، وإنما اسم إقطاعية سوف تصبح دويلة ، ثم مقاطعة من مملكة ، ثم محافظة فى إسبانيا الحديثة ، والاسم مأخوذ من نهر كان يمر بها (١٩) .

بقى أن أشير إلى أن المؤرخين المسلمين ، فيما قرأت ، لم يطلقوا أبداً اسم إسبانيا على الأندلس الإسلامى ، أو على ما تبقى منه فى يد الكاثوليك ، أو استولوا عليه عنوة فيما بعد من المسلمين . كذلك فإن المدونات الكاثوليكية وهى متأخرة وقليلة ، وكتب جلها رجال الدين فى اللغة اللاتينية ، لا تطلق على الجانب الإسلامى اسم الأندلس إلا قليلا ، وإنما تتحدث فقط عن العرب والمسلمين . ويرى سيبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أندلس : «أن نصارى إسبانيا الشمالية كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلا تاماً ، وكانوا يطلقون على الجزء العربى الجنوبى الاسم القديم إسبانيا Hispania أو Spania ، أما موطنهم الشمالى فأطلقوا عليه أسماء خاصة مثل : أشتورياش وليون وقشتالة

وأرجون » وهى فكرة تحتاج إلى إعادة تحرير ، فالحق أن المسلمين هم الذين أطلقوا أولا هذه الأسماء على الدويلات المسيحية التى قامت فى الشمال ، وهى تسمى فى نشأتها دويلات تجوزا ، لأنها كانت مجرد إقطاعيات يقوم عليها إقطاعى حاكم ومالك ، يسمى نفسه أميراً أو ملكا أو نبيلا ، وقد سبقت المدونات العربية فى ذلك أية مدونة مسيحية .

أما القول بأن نصارى الشمال كانوا يجهلون اسم الأندلس جهلا تاماً ، فدعوى كبيرة تحتاج إلى بيان . ينبغى أولا أن نفرق بين المعرفة والتدوين ، فلا أظن أن ملوك الشمال حين كانوا يهبطون قرطبة الإسلامية إلتماساً للعلاج عند كبار أطبائها ، أو الطلاب المسيحيين حين كانوا ينزلونها طلباً للعلم عند شيوخها ، وفى معاهدها ، كانوا يجهلون أنهم فى عاصمة دولة تسمى الأندلس . ولا أعتقد أن المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين فى دولتهم ، وعرفوا باسم المستعربين Los Mozarabes لأنهم اتخذوا العربية لساناً ، يتحدثون بها ، ويقولون الشعر فيها ، ثم هاجروا إلى الممالك المسيحية فى الشمال يعملون خبراء أو مترجمين ينقلون أفضل ما عرفوا ، كانوا يجهلون هم ، أو الذين يستخدمونهم ، أنهم قادمون من عند الأندلسيين ، وهم — رغم كاثوليكيتهم — يتكلمون لغتهم ، ويحتذون عاداتهم ، تقاليد وملبساً وأنماط حياة . ونتجاهل الواقع حين نتصور أن المترجمين الذين عكفوا فى مدينة طليطلة ، على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادى ، ينقلون التراث الإسلامى من العربية إلى اللاتينية ، ثم إلى القشتالية فيما بعد ، وقد أصبحت المدينة عاصمة قشتالة بعد أن استولى عليها ألفونسو السادس من المسلمين عام ١٠٨٥ م ، كانوا يجهلون أن شبه الجزيرة يسمى بلاد الأندلس ، أو الأندلس فحسب ، فى مؤلفات المسلمين . وأما أن المسيحيين كانوا يسمونها إسبانيا فذلك مقصور على الكتب المدونة ، وكتابها دون استثناء لغتهم اللاتينية ، وجلهم من رجال

الدين ، وهم بحكم ثقافتهم الدينية واللغوية المحافظة ، إن لم نقل المتعصبة والجامدة ، يتمسكون بالقديم ويقفون عند مفردات اللغة اللاتينية لا يتجاوزونها إلى لفظ آخر لم تعرفه . وكانت اللاتينية تعرف لفظى Spania, Hispania وتجهل لفظ الأندلس ، لأنه جديد مستحدث . وهم عندما كانوا يستخدمون التسمية اللاتينية كانوا يعنون بها شبه الجزيرة كله ، سواء فى ذلك الأراضى الإسلامية أو التى فى حوزة الكاثوليك . فإذا اتصل الأمر بالمسلمين وحدهم سموها : المسلمين Los Moros ـ أو المديين أو الأفريقيين أو العرب فى القليل .

* * *

يوجد اسم « الأندلس » فى أقدم المصادر الجغرافية والتاريخية التى لدينا ، وأقدمها يعود إلى مطلع القرن التاسع . أى أن بين الفتح الإسلامى وتدوين وقائعه فترة تبلغ المائة عام ، أزيد أو أنقص قليلا ، فهل جاء هذا الاسم مع التدوين أم عرفه المسلمون قبله ، وفى أى عام ؟

لا توجد وثائق أو نصوص تعيننا على هذا التحديد ، غير أننا إذا لجأنا إلى المسكوكات لا نجد الاسم فى العملة التى ضربت أيام الفتح نفسه ، ويظن أن موسى بن نصير أمر بسكها أيام أن كان محاصراً لمدينة ماردة Mérida ، وصنعت من ذهب متوسط الجودة ، وأقدم ما يوجد منها دينار مثير يوجد فى مكتبة باريس الوطنية ، ويعود إلى عام ٩٣ للهجرة ، الموافق لعام ٧١١ ميلادية وعلى وجهه كتابة باللغة اللاتينية ، ويستخدم التاريخين الهجرى والميلادى ، وهما يتطابقان أحياناً ويختلفان أحياناً أخرى ، وفى هذا الدينار نجدهما متوافقين ، وصورة الكتابة على الوجه الذى يحمل التاريخ جاءت على هذا النحو : ANN XCIII He INDCXI وفى العام التالى ، ٩٤ هـ — ٧١٢ م ، ضُربتْ دنانير أخرى وصلنا عدد كبير منها ، وفى سنة ٩٥ هـ — ٧١٢ م ضُربَ نوعان آخران من الدنانير ، وهى أندر وجوداً الآن من دنانير العام

الذى سبقه ، وفى هذه الدنانير كلها استخدم العرب الاسم اللاتينى لشبه الجزيرة ، وهو كلمة إسبانيا .

ويلحظ الدارس لهذه المسكوكات أنّ المسلمين نهجوا فى كتابتهم اللاتينية نفس الطريقة التى يتبعونها فى اللغة العربية ، فكتبوا الحروف الساكنة فحسب ، وأسقطوا حروف اللين ، مما يعنى أن كاتبها كان مسلماً يعرف العربية وشيئاً محدوداً من اللغة اللاتينية .

ونفتقد بعد ذلك عملات جديدة ، إلى أن يجىء الحر بن عبد الرحمن الثقفى والياً على الأندلس ، فيأمر فى عام ٩٨ هـ — ٧١٦ م بضرب عملة جديدة تحمل لأول مرة لغة مزدوجة ، النص اللاتينى على وجه ، وترجمته العربية على الوجه الآخر ، وجاءت كلما النص اللاتينى على الصورة التالية :
Feritus Solidus in Spania anno XCVII ويقول النص العربى المقابل له : « ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة ثمان وتسعين » . وهذا الدينار أقدم وثيقة بين أيدينا نجد فيها الاسم اللاتينى إسبانيا Spania مترجماً إلى اللفظ العربى « الأندلس » (٢١) . ويشير هذا الدينار ، إلى جانب ذلك ، عدداً من الملاحظات . فنحن نجده على غير ما تعودنا فى العملات السابقة يحمل الكتابة اللاتينية كاملة ، بحروفها الساكنة واللينة ، وأنهم رسموا الكلمات اللاتينية على نحو ما سمعوها ، وليس كما تقتضيه قواعد اللغة ، واقتصرت فى الكتابة على التاريخ الهجرى وحده ، سواء فى ذلك الوجه الذى كتب فى اللغة العربية أو الوجه الآخر الذى كتب فى اللغة اللاتينية ، وأن ثمة فارقاً بين التاريخين فى النص العربى والنص اللاتينى ، فالنص الأول يحمل تاريخ ٩٨ هـ ، بينما يحمل النص الثانى تاريخ ٩٧ هـ ، وإذا كان الفارق فى هذا الدينار لا يتجاوز العام ، فهو يتسع فى دنانير أخرى حتى يبلغ ، أحياناً ، ثلاث سنوات . وفى

عدد منها نجد أخطاء فى النص العربى ، مثلا نجد الجملة مكتوبة على النحو التالى : « سنة مان وتسعين » بدلا من ثمان ، و « ضرب هذا الدينار بالأندلس ثمان وسنة تسعين » ، وذلك يعنى أن القائمين على هذه الصناعة لم يكونوا متمكنين لا من اللغة اللاتينية ولا من اللغة العربية ، أو بتعبير أدق لم يكونوا عرباً من المشرق ، ولم يكونوا إسباناً من أهل شبه الجزيرة ، وفيما يبدو لى كانوا بربراً من الذين دخلوا الإسلام حديثاً ، وحظهم من كلتا اللغتين محدود .

إذن أول استخدام رسمى لاسم « الأندلس » يعود إلى عام ٩٨ هـ ، أى بعد ستة أعوام من بدء الفتح ، لكن ذلك لايعنى بأية حال أن استخدام المسلمين لهذا الاسم بدأ فى العام نفسه ، لأن استخدام اسم ما فى عملة رسمية يعنى أنَ يكون الاسم المستخدم شائعاً ومعروفاً بين الناس ، إن لم يكن عند الجميع فبين الكثرة الغالبة التى ضرب لها على الأقل . وأنا أرجح أن اسم « بلاد الأندلس » كان معروفاً للكثرة الغالبة من المسلمين الوافدين من المغرب ، ممن ينحدرون من أصول بربرية ، ليس بعد الفتح فحسب ، وإنما عشيته أيضاً ، وحتى قبله بزمن طويل على ما سنعرض بعد قليل . ولم يستخدم فى الدنانير التى ضربها موسى بن نصير لأنها لم تستخدم العربية إطلاقاً ، وجاءت تقليداً أميناً لدنانير لقيها فى أفريقية — تونس الحالية — جرى الناس على التعامل بها منذ أيام هرقل ، إبان احتلال الرومان لقرطاجة .

ليس ثمة شك فى أن اسم الأندلس يرتبط بالوندال على نحو ما ، تتفق فى ذلك المصادر العربية والأجنبية ، وهى قبائل جرمانية غازية هبطت جنوب إسبانيا الشرقى لفترة قصيرة ، فعاثوا فى الأرض فساداً ، ودمروا فى طريقهم كل شئ ، ثم عبروا المضيق إلى شمال أفريقية فاستقروا فيه زمناً ، ولم يكونوا هنا بأحسن حالا مما كانوا عليه هناك ، فتركوا فى حياة الناس وذواكرهم أسوأ

الأثر . فالذين اشتق منهم الاسم إذن معروفون للإسبان الذين فى شبه الجزيرة ، ومعروفون أكثر لسكان شمال أفريقيا ، ولم يكن هؤلاء يعرفون عن الغزاة الجدد إلا أنهم قادمون من وراء المضيق ، وأن الأرض التى قدموا منها هى بلاد الوندال .

والباحثون المحدثون من العرب يرون أن اسم الأندلس قد أخذه العرب من كلمة فندلس Vandalos أما كيف تم ذلك دون أن يخضع لأى قانون صوتى أو لغوى عربى معروف فلم يقف عنده أحد . وإذا بحثناه علمياً ، وتأملناه ملياً ، وجدنا أن كلمة الوندال لها صورتان : واحدة جرمانية والأخرى لاتينية . أما الجرمانية فهى Wandalos والحرف الأول منها ينطق فيما يشبه الواو فى اللغة العربية ومن ثم يجب أن ينطق جمعها وندلس ، وانقلاب الواو همزة لاتعرفه العربية أبداً . وإذا قيل أن العرب أخذوها عن اللغة المتكلمة فى الأندلس ، فإن هذه الكلمة الجرمانية يجب أن تكون قد انتقلت إلى لاتينية إسبانيا العامية طبقاً لقوانينها الصوتية ، فتصبح Guandaluz لأن الإسبانية درجت على أن تحول حرف W الأجنبى إلى Gu هكذا صنعت مع المفردات الألمانية ، فكلمة Wilhem أصبحت فى الإسبانية Guillen . ومع المفردات العربية فكلمة وادى الرمل أصبحت Guadarrama . وإذا قلنا إن العرب عرفوا اللفظ فى صورته اللاتينية Vandalos فيجب أن ينتقل إلى العربية فى صورة بندلس ، ولم يحدث كذلك أن انقلبت الباء همزة فى اللغة العربية . إن تصور أن يكون لفظ Wandalos قد أخذ طريقه إلى اللغة العربية مباشرة أمر بعيد الاحتمال .

لكن الذى أراه أن شمال أفريقيا كان يعرف إسبانيا تماماً ، وهى منهم على مرأى البصر ، فى الفترة التى سبقت الفتح باسم « بلاد الأندلس » ، أى البلاد التى جاء منها الوندال ، وقد ارتبط هؤلاء فى مخيلة الناس بقسوتهم وجبروتهم ،

وعاشوا فى أذهانهم شيئاً مرعباً ، وأن التسمية شاعت فى كل شمال إفريقية، وأصبحت تطلق على الجانب الآخر المقابل لطنجة من شبه جزيرة إيبريا ، حتى بعد أن آل حكم شبه الجزيرة إلى القوط ، وحين جاء الإسلام إلى شمال أفريقيا فاتحاً عرف العرب ، أو سمعوا على الأقل، اسم الأندلس يقصد به إسبانيا ، قبل أن يعبروا إليها المضيق فاتحين . عرفوا ذلك الاسم عن طريق البربر أولا ، وهو افتراض يدعمه أن المدونات العربية الأولى التى عرضت لأحداث الفتح كثيراً ما تتحدث عن « بلاد الأندلس » ، ولا تذكر كلمة الأندلس إلا فى القليل .

صحيح أن المصادر القديمة ، عربية ولاتينية وإسبانية ، سكتت عن العلاقات الجارية بين البلاد القائمة على جانبى مضيق جبل طارق، تحت أى اسم وجدت ، حتى وقع فى الوهم أنهما لم يكونا على صلة ، رغم أن جانباً من شمال أفريقيا ، يشمل منطقة سبتة وما حولها ، كان يتبع إسبانيا سياسياً ، مباشرة أو فى شكل حماية ، وشجع المسلمين على فتح شبه الجزيرة . وكان ابن الرقيق القيروانى ، أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم ، الوحيد الذى ألمح فى كتابه : « تاريخ أفريقية والمغرب » إلى شىء من هذا ، يقول : « . . فعزم طارق على غزو الأندلس واستنفر البربر ، فجعل إليان يحمل البربر فى مراكب التجار التى تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم » (٢٢).

ويرى المؤرخ الإسبانى المعاصر أنتونيو غرسية أن المعرفة بين الضفتين موغلة فى القدم ، وأن تبادل الحكم بينهما يمثل دورة تاريخية : « نحن نعرف منذ المدرسة الإبتدائية أن العرب اقتحموا الجزيرة عام ٧١١ م ، ولكن أحداً لم يؤكد لنا أن هذا الغزو ليس إلا تكراراً لظاهرة تأخذ طابع عامل يتكرر فى

تاريخنا . فقبل العرب جاء الإبرون ، ربما فى أواسط الألف الثانى قبل الميلاد ، و القرن الثانى الميلادى كان ثمة غزو آخر ، ودارس مرحلة ما قبل التاريخ يمكن أن يضيف إلى هذين المثالين أمثلة كثيرة ، معتمداً على بقايا الأشياء الصناعية المتخلفة فى إسبانيا وشمال أفريقيا، وبالقطع يمكن القول بأن مضيق جبل طارق لم يكن أبداً ، ولن يكون يوماً ، مضيقاً يفصل ، ومجرى ماء يباعد ، بل على النقيض هو طريق يوحد ويقارب . ولقد عبر الوندال إسبانيا إلى أفريقيا خلال هذا المضيق ، ومنه أيضاً جاءنا العرب عبر شمال أفريقيا ، وسلك المرابطون والموحدون نفس الطريق ؛ ولست أدرى ما إذا كنا سنحكم من جديد برجال يأتون من شمال أفريقيا ، وإذا اعتقدنا أن ما هو حادث الآن سيستمر دائماً نكون كمن يرى التاريخ بعين النملة ، ويقيسه بمقياس حياتها الخادع» (٢٣) .

أضف إلى هذا أن تطور الاسم إلى الصيغة التى عرف بها فى اللغة العربية يتفق ، على و ما ، مع اتجاهات اللغة البربرية ، فنحن نجد فى هذه اللغة عدداً من الأسماء تضاف إليها الواو بدءا فى حالة الجر ، وتجرد منها فى الحالات الأخرى ، فمثلا : كلمة Adu ، وتعنى عاصفة ، تصبح فى حالة الجر Wadu وكلمة Aman بمعنى ماء ، تصبح Waman وكلمة Ass بمعنى اليوم تصبح Wass و Wayyur بمعنى القمر تصبح Wyyur . وهم يقولون مثلا : Fkid Aman أعطنى ماء ، فإذا قالوا أعطنى قليلا من الماء أصبحت Fkid imik waman . ألا يمكن الافتراض إذن بأن البربر تصوروا أن كلمة Wandalus الجرمانية جاءتهم فى صورة الجر ، فاشتقوا منها اسماً فى حالة الرفع ، هو على قواعد لغتهم ، ودون أى استثناء ، يصبح أندلس Andalus ، أى أن كلمة Andalus تكون بالنسبة لكلمة Wandalus فى البربرية ، ما تكونه كلمة Aman مرفوعة بالنسبة لكلمة Waman

مجرورة (٢٤) . وجاء العرب من المشرق فالتقطوها من أفواه البربر ، فهى إذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية أو الجرمانية أو اللاتينية المتكلمة فى إسبانيا مباشرة ، وبذلك يمكن حل المشكلة حـ وتياً وتاريخياً . إن غياب حرف W أو V من كلمة أندلس لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء هذا الفهم .

* * *

لم يذهب الاسم بسقوط دولة الإسلام فى الأندلس ، وإنما بقى فى إسبانيا الحديثة بعد أن أخذ صورة أندلسيا Andalucia ؛ ويطلق — تقريباً — على ما يسميه أبناء سعيد فى كتابهم « المغرب فى حلى المغرب » موسطة الأندلس أى على المنطقة التى تشمل محافظات : ألمرية وغرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية وقادس وولبة . وقبل ذلك عبرت التسمية مضيق جبل طارق مع ثلاثمائة أسرة قرطبية نفاها الحكم الأول خلال ثورة الربض الشهيرة ، فاتجهوا نحو فاس واستقروا فيها ، وأطلقوا على حيهم اسم الأندلس ، وعرفوا هم بالأندلسيين ، وما زالوا به يعرفون . وكذلك أدت كثرة الوافدين من الأندلسيين على القاهرة فى طريقهم إلى الحج ، أو طلباً للعلم ، أو بحثاً عن الرزق ، إلى أن تكون لهم بالفسطاط محلة يطلق عليها اسم الأندلس ، تضم رحبة ومسجداً ومصلى . وضم إليها مع الزمن رباط للعجائز المنقطعات الصالحات ، وآخر للأرامل العابدات ، وبستان مثمر . ومنذ نهاية القرن الخامس عشر حمله معهم المسلمون الذين أكرهوا على الخروج من الأندلس بعد انتصار الكاثوليك هناك إلى الأمكنة الإسلامية التى لاذوا بها ، فى تونس أو الجزائر أو المغرب .

وقبل ذلك وبعده ، بقى اسم « الأندلس » فى أعماق كافة المسلمين جوهراً مشعاً ، يبعث التأمل والإعجاب ، ويحرك الشجى والندم ، ويثير الأسى والحسرة على الدوام .

● الهامش والتعليقات

(١) تطلق ولبة الآن على مقاطعة كبيرة ، مساحتها ١٠٠٨٥ ك ٠ م ٠ ، وتتاخم مقاطعتى اشبيلية وقادس من الشرق ، والبرتغال من الغرب ، وشمالها مقاطعة بطليوس . ويمر فيها نهر صغير يسمى النهر الاحمر Rio Tinto ، ونهر آخر يسمى اوديل Odiel ويصبان متقاربين فى خليج واسع ، تتناثر فيه عدة جزر صغيرة ، اكبرها جزيرة شلطيش ، وبين المصبين ، على راس يفصل بينهما ، تقع ولبة الحالية . وهى ميناء كبير ، ومركز هام لصيد الأسماك ، وقاعدة المقاطعة التى تحمل اسمها ، وهى موطن اسرة ابن حزم العالم الاندلسى العظيم ، وخرجت من دار الاسلام نهائيا عام ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م ، على يد فرناندو الثالث المعروف بالقديس .

(٢) Antonio Garcia Y Bellido : Vienticino Estampas de la Espana Antigua, p. 208, Madrid, 1967.

(٣) دائرة المعارف الاسبانية ، مادة Iberia

(٤) Antonio Garcia : Op. cit., p. 206 ss.

(٥) وصلنا من كتاب أبى عبيد البكرى : « المسالك والممالك » الجزء الخاص بافريقيا ، وبدأ المستشرق الفرنسى كترمير ، المتوفى عام ١٨٥٧ م بترجمته الى اللغة الفرنسية وأتم الترجمة استاذه ومواطنه البارون دى ساسى ، المتوفى عام ١٨٣٨ م ، ونشر الأصل العربى فى سنة ١٩١١ ، والترجمة الفرنسية فى سنة ١٩١٣ . وعثر ليفى بروفنسال على الجانب المتصل باسبانيا ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن على الحجى اخيرا بعنوان : « جغرافية الأندلس وأوربا ، عام ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٨ م .

(٦) أبو عبيد البكرى : المسالك والممالك : ص ٥٨ ، طبعة عبد الرحمن حجى .

(٧) ص ٢ ، من طبعة القاهرة .

(٨) Antonio Garcia : Op. cit., p. 214 ss.

(٩) Antonio Ramos-Oliveira : Historia de Espana, tomo I, p. 261, México, 1952.

(١٠) دائرة المعارف الاسبانية ، مادة Epsana

Dozy : Recherches, 2 edi., vol. I, p. 310.

(١١) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١ .

● عثر على هذا الكتاب المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ، وانتخب منه المادة الخاصة بالأندلس ، وترجمة الى الفرنسية مع تعليقات ضافية وفهارس وافية ، ونشر القسم العربى بعنوان : « صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار » ، وصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٣٧ . ومما يذكر أن الكتاب وقع فى يد المقريزى ، المؤرخ المصرى الشهير ، فاختصره فى مجلد صغير .

(١٢) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أندلس .

(١٣) الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢ .

(١٤) انظر :

● الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢ .

● أبو عبيد البكرى : المسالك والممالك ، ص ٥٨ .

● المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٤٢ ، طبعة محيى الدين .

(١٥) Antonio Garcia : Op. cit., p. 218.

(١٦) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٣٤ .

(١٧) بنو سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ٢ ص ٤٧٣ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة بلا تاريخ .

(١٨) Antonio Cavanilles : Historia de Espana, tomo II, p. 79 ss., Madrid, 1861.

(١٩) Antonio Ramos : Op. cit., p. 386

(٢٠) Catalogue de la voix, No. 128.

Saavendra : Invasion arabe en Espagne, p. 108.

(٢١) Casto Ma del Rivero : La Moneda Arabigo-espanolo, p. 4 ss., Madrid, 1933.

(٢٢) كان هـذا الكتاب ضائعا ، وعثر على مخطوطته غير كاملة العالم المغربى الجليل الأستاذ محمد المنونى فى خزانة الرباط ، لا تحمل اية نسبة او اشارة الى مؤلفها ، وكان هو الذى اهتدى بالمقارنة الى أنها لابن الرقيق ، وقدم وصفا لها فى مجلة المغرب ، العـدد ٦ و ٧ ، لعام ١٩٦٥ . ولدى نسخها مكتوبا بالآلة الكاتبة ، وقبل نشر النص الأستاذ التونسى المنجى الكعبى ، فى مدينة تونس ، ولما يقع فى يدى .

(٢٣) Antonio Garcia : Op. cit., p. 184.

(٢٤) Wycichl Werner : Sobre la historia de un nombre,